

وعد بلفور

والعوامل التي ساعدت على اصداره

للدكتور محمد محمود السويدي

ارتبط وعد بلفور ارتباطاً وثيقاً بالمشكلة اليهودية وبالحركة الصهيونية في القرن التاسع عشر ، ووعد بلفور أحد اتفاقات دولية ثلاث أملت لها ظروف الحرب العالمية الأولى لخدمة الأغراض العسكرية ولتحقيق أطماع الدول الأوروبية الكبرى في تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية وانهاء المسألة الشرقية التي شغلت أذهان سياسة أوروبا دحاً طويلاً من الزمن .

وصلة اليهود بفلسطين ترجع الى القرون الأربعة أو الخمسة قبل الميلاد حيث استطاعوا في تلك الفترة من الزمن إيجاد بعض التشكيلات السياسية على ضفاف نهر الاردن . وباستيلاء الرومان على مصر والشام قضوا على تلك التشكيلات السياسية وأنضغوا اليهود لحكمهم المباشر . ثم توالى على حكمهم البيزنطيون والفرس والعرب والأتراك السلاجقة والمماليك والعثمانيون .

ولن أتعرض بطبيعة الحال لتطور تلك المشكلة خلال العصور . وإنما سأقتصر على بحثها في ظل الحكم العثماني لفلسطين . أي منذ أن نزل الاتراك بأرضها فاتحين في عام ١٥١٦ .

وإذا نظرنا الى الحكم العثماني للولايات العربية بصفة عامة نجد أنه لم يكن في صالح المحكومين بأي حال من الأحوال . فلا غرابة اذا ما ساءت حالة فلسطين بمن فيها من عرب ويهود تحت الحكم التركي .

وقد حاول نابليون خلال حملته على مصر والشام أن يقرى اليهود ، وخصوصاً يهود آسيا وافريقيا على مساعدته في عملياته الحربية بتلك المنطقة ،

ووعدهم بإرجاع حقوقهم المفقودة في أرض فلسطين إذا ما انضموا تحت لوائه . ولكن هذه المحاولة ذهبت ادراج الرياح لعدم استطاعة نابليون الصمود أمام حصون عكا ، ولخروج الحملة الفرنسية من مصر بعد فترة وجيزة .

ومن النتائج الهامة التي تترتبت على حالة نابليون على الشام – رغم فشلها في تهديد المصالح البريطانية في الهند – اثاره اقباه انجلترا الى هذه المنطقة . وهذا ما دفعها الى الوقوف ضد محمد علي عندما اجتاحت جنوده الشام . وما يدل على زيادة اهتمام انجلترا بفلسطين منذ ذلك الوقت حرصها الشديد على إخضاع الأراضي حول ضفتي القناة لسلطانها ، وهذا مادعا اللورد كرومر في سنة ١٨٩٢ الى الاصرار على أن ينص فرمان تعيين الخديوي عباس الثاني على تحديد الحدود الشرقية لمصر بالخط المار من العريش شمالا الى خليج العقبة على البحر الأحمر ، أي ادخال كل شبه جزيرة سيناء ضمن حدود مصر . بينما يصر السلطان العثماني على أن يمتد خط الحدود الشرق لمصر من العريش الى السويس فقط .

وفي سنة ١٩٠٦ حاول الأتراك إعادة احتلال الجزء الشرق من شبه جزيرة سيناء، ولكن انجلترا هددت باستخدام القوة بحيث اضطرت تركيا الى قبول قرار اللجنة التي شكلت لتحديد الحدود الشرقية لمصر والذي ينص على جعل الخط الممتد من خليج رفح شمالا الى خليج العقبة جنوبا حدا فاصلا بين مصر في الغرب وممتلكات الدولة العثمانية في الشام (١) .

وظلت فلسطين خاضعة للحكم التركي الى عام ١٨٣٢ حيث خضع الشام كله لسيطرة محمد علي . ولم يغير دخول فلسطين في حوزة محمد علي من الأمر شيئا. فظلت حالة الأهالي سيئة نظرا لفساد الضرائب المفروضة عليهم ، ولاتباع محمد علي سياسة الاحتكارات التي طبقت في مصر .

(١) Bentwich N.; Palestine P. 53.

ولم يطل إبقاء الشام في قبضة محمد على فرعان ما أعيد مرة ثانية الى حظيرة الدولة العثمانية بعد هزيمة القوات المصرية في سنة ١٨٤٠ . وفي ذلك الوقت تمتع اليهود بحماية بعض القنصليات الأوروبية، وخصوصا القنصلية الانجليزية التي أنشئت في ذلك الوقت بفلسطين . ورغم ما تمتع به اليهود من حرية واسعة ، فإن هذه الحرية لم تحل بينهم وبين التفكير في اعادة ما يسمونه بمجد اسرائيل القديم ، وارجاع سيطرة اليهود على فلسطين دون مراعاة للظروف التاريخية التي مرت بتلك المنطقة، وبسكانها الأصليين الذين أمّرتجوا بشعوب أخرى ، وتكون من هذا الخليط الشعب الفلسطيني العربي الحالي . فهذا الشعب هو وحده صاحب الحق الشرعي في تلك البلاد . فعلى ارضها يعيش كما عاش آباؤه واجدادهم من قديم ، فادعاء اسرائيل اذن بأحقيتها في امتلاك تلك الأراضي استنادا على الأوضاع التاريخية القديمة التي لم تعمّر سوى فترات قصيرة من الزمن - اذا ما قيست بفترة الحكم العربي التي لا تقل عن ثلاثة عشر قرنا من الزمان - ادعاء مردود .

وقد ارتبطت حركة المناادة بمجمل فلسطين وطنا قوميا لليهود بالحركة الصهيونية ارتباطا كبيرا . ظهرت هذه الحركة بشكل واضح في أواخر القرن التاسع في أعقاب حركات الاضطهاد والمذابح التي تعرض لها اليهود في دول شرق أوروبا ، وعلى وجه الخصوص في روسيا وبولندا . ونشأة هذا الاضطهاد لا ترجع الى أسباب دينية ، وانما تنبع من أسباب اقتصادية وعنصرية تبلورت فيما اطلقت عليه أوروبا اسم الحركة اللسامية Anti Semitism Movement، ولم تفصح الصهيونية عن نواياها الحقيقية ووسائلها في بادئ الأمر ، بل أخذت تصير العنصرية الدينية مع العنصرية السياسية طوال القرن التاسع عشر حتى تبلورت في النهاية عقيدتها السياسية^(١) ، تلك العقيدة التي انحصرت في جمع شمل اليهود والعمل على أحياء لغتهم وتاريخهم وتوطئ لانشاء الدولة اليهودية الحديثة . وتحقيقا لهذا العمل أخذ الصيونيون يدعون بأن اليهود أمة واحدة مستمرة منذ آلاف السنين . ولا يتقص هذه الأمة سوى أرض الوطن .

(١) دكتور أحمد عبد القادر الجمال : من مشكلات الشرق الأوسط ص ١٢١

وينبغي ألا يغرب عن ذهننا أن الحركة الصهيونية قد لقيت اهتماماً من قبل الصيونييين في شرق أوروبا وفي غربها على السواء . وهي ليست حركة سياسية فحسب . بل كانت حركة اقتصادية وسياسية تدر عليهم الربح الوفير ، الأولون يصعدون العمال اليهود من شرق أوروبا بترغيبهم بكل الوسائل في الهجرة إلى فلسطين . والآخرون يصعدون رأس المال إلى فلسطين (١)

ولم يطالب اليهود الصيونييون في بادئ الأمر بجعل فلسطين بالذات وطناً قومياً لليهود بل كان هدفهم الحصول على بقعة من الأرض تكون ملجأً لليهود المضطهدين ، فدخلوا في مفاوضات مع الدولة العثمانية لمنحهم قطعة من أرض سوريا أو فلسطين ، ولكنها فشلت لخوف الدولة العثمانية من تغلغل النفوذ اليهودي في تلك المنطقة . فبمرو وجوههم شطر الدول الكبرى وخاصة إنجلترا وتقدموا إليها بمشروعين : أحدهما يطالب باتخاذ أوغندة وطناً لليهود ، والمشروع الآخر ينصب على شبه جزيرة سيناء . ولكن باء المشروعان بالفشل ولم يكن حظهما أحسن من حظ سابقتهما .

ويعلق الدكتور حاييم وايزمن على هذين المشروعين فيندد بالمشروع الأول ويبين بأنه لا يتفق مع أهداف الصهيونية في التوسع والاستعمار ، ولكنه يؤيد المشروع الثاني ويحمل على الذين رفضوه ، ويوضح بأن شبه جزيرة سيناء مكان مناسب لتوطيد أقدام الصهيونية فيه ، نظراً لاتصاله جغرافياً بفلسطين ويمكن اتخاذه نقطة ارتكاز للنشاط الصهيوني في المناطق المحيورة له (٢) . ويذكر المستر Hoskins في كتابه *The Middle East* بأن الاستعمار الصهيوني قد بدأ في ظل الحكم التركي في صورته مصفرة (٣) .

المؤتمر الصهيوني الأول

يعتبر الكاتب النمسي تيودور هو تزل *Theodor Herzl* أول من صاغ الأمانى القومية لليهود في شكل قضية قومية مدروسة في كتابه (الدولة اليهودية) *Judenstaat* ، وكان لنشر هذا الكتاب أكبر الأثر في التمهيد لعقد

(١) المصدر السابق ص ١٢٧

1. Weisman Dr; Trial & Error P. 228.

(٢)

2. Hoskins H. L.; The Middle East P. 43.

(٣)

أول مؤتمر صهيوني لليهود في القرن التاسع عشر . واجتمع هذا المؤتمر بمدينة بال بروسيا في ٢٩ أغسطس سنة ١٨٩٧ لمناقشة المسألة اليهودية . وفيه طالبت الوفود الصهيونية الآتية من دول شرق أوروبا بجعل فلسطين وطنا قوميا لهم ، أحياء لمجد اسرائيل في أرض الميعاد، وتخليدا لمملكة داوود وملكان . وقد ركز الصهيونيون اهتمامهم بفلسطين بعد أن فشلت جميع محاولاتهم مع إنجلترا .

وفي هذا المؤتمر أيضا وضع الاعضاء شعار العلم اليهودي ، والشيد القومي اليهودي ، وتأسست الهيئات الصهيونية العالمية التي ستفرع عنها الوكالة اليهودية الأهلية .

وقد حاول هرتزل أن يحصل على ترخيص من السلطان من شأنه فتح أبواب فلسطين لهجرة اليهود ومنحهم مركزا خاصا بها ، ولكنه فشل في محاولته تلك وبدأ أن ليس هناك أي نتيجة عملية متوقعة في وقت قريب ، ولذلك ترك الآخرين السير وراء هذا الخيال البعيد عن التحقيق على ما يبدو (١) .

وعندما ولى رجال تركيا الفتاه الحكم كانوا يميلون الى الاستجابة لمطالب الصهيونيين نظرا لما تتمتع به العناصر اليهودية داخل جمعية الاتحاد والترقي من نفوذ ، ولكنهم سرعان ما تبينوا أن الحكمة تقضي ببرد تلك المطالب نظرا للفضحة التي أثارها النواب العرب في البرلمان التركي في ربيع سنة ١٩١٢ ضد امتلاك اليهود لمساحات كبيرة من الأراضي الزراعية بفلسطين ، وما في ذلك من خطر جسيم على مستقبل الملايين العرب (٢) .

ورغم أن فكرة انشاء وطن لليهود في فلسطين كانت لا تخرج - وتشد - عن مجرد خيال برارود عقول غلاة الصهيونيين ، وفكرة تستند على العاطفة أكثر مما تستند على الواقع ، الا انها وجدت رجالا أشداء يؤمنون بها ويعملون

(١) Samuel H.L.; Memoir P. 8٩.

(٢) Antonius G.; The Arab Awakening P. 259.

على التمهيد لما في أذهان الرأي العام العالمي ، تاركين مهمة التنفيذ الى الظروف الملائمة ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ، الثرى اليهودى الكبير اللورد روتشلد والدكتور حايم وايزمن « وهو يولونى الأصل وتجنس بالجنسية الإنجليزية وأصبح استاذاً للكيمياء في جامعة مانشستر ، والدكتور نعم سوكلوف السياسى الكبير ، ونجبة ممتازة من كبار الكتاب والصحفيين ورجال السياسة .

وقد أصاب الحركة الصهيونية شيء من الحمود بعد فشل المحاولات السابقة وخصوصاً بعد موت هرتزل في ١٩٠٤ ، ولكن سرعان ما وجدت الحركة بديلاً له في شخصية الدكتور وايزمن . غير أن هذه الشخصيات اليهودية الكبيرة ما كانت تمتطج النجاح في مهمتها لولا عطف وارشاد بعض الاساسة الانجليز . وفي هذا المعنى يقول الدكتور حايم وايزمن « ولولا المشورة التي كان يقدمها لنا رجال أمثال سايكس ولورد روبرت سيل في وقت لم تكن لنا خبرة في المفاوضات الدبلوماسية الدقيقة لارتكبنا دون شك أخطاء جسيمة وكثيرة » (١).

الحرب العالمية الاولى ومساومات الصهيونية

كانت الحرب العالمية فرصة نادرة أمام الصهيونية العالمية لتعبير عن نشاطها في مساومة الحاربيين للوصول الى أفضل الشروط التي تحقق لها مطامعها في فلسطين . وفي نفس الوقت ألحقت الحرب الحركة القومية العربية ، فقد وجد فيها العرب فرصتهم للخلاص من استبداد الترك . وخصوصاً بعد أن استتب الأمر لحكومة الاتحاديين التي سارت على سياسة أكثر تعسفاً وعصية مما كانت عليه سياسة السلطان عبد الحميد . وكان العرب عازمين على الحصول على استقلالهم بأي ثمن من الأثمان وبأية وسيلة من الوسائل . وقد وجدوا أن مصالحهم تتفق مع مصالح إنجلترا في القضاء على الدولة العثمانية ، وأن اختلاف الهدف الذي يسعى كل من الطرفين الى تحقيقه .

Weizman Dr.: Trial & Error P. 130. (١)

ولكن العرب لم يكونوا على استعداد للدخول في مفاوضات مع إنجلترا دون قيد أو شرط ، بل لقد اتحدت كلمة زعمائهم على ضرورة الحصول على « اعتراف بريطانيا العظمى باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التالية (١) :

شمالا : خط مرسين — أضنة حتى درجة ٣٧ شمالا : ومنها على امتداد خط بريجيك — أورفة — ماردين — مديات — جزيرة ابن عمر — عماديه حتى حدود فارس .

شرقا : الحدود الفارسية حتى خليج فارس
جنوبا : المحيط الهندي (خلا عدن التي تحافظ على وضعها الحالي)
غربا : البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط حتى مرسين .

— إلغاء الامتيازات الأجنبية .

— عقد تحالف دفاعي بين بريطانيا العظمى والدولة العربية المستقلة العتيدة .

— منح بريطانيا الأفضلية في الشئون الاقتصادية .

هذه هي الشروط التي قدمها الزعماء الى الشريف حين حاكم مكة ليتولى عرضها على الجانب البريطاني نيابة عنهم ، فان قبلتها بريطانيا فيسكون العرب على استعداد لتأييد الثورة العربية التي سيعلنها شريف مكة ضد الأتراك العثمانيين .

وقد ماطلت إنجلترا في أول الأمر في اعطاء موافقة صريحة على المطالب العربية وظلت المفاوضات مستمرة بين الطرفين فترة غير قصيرة ، وهي التي اطلق عليها اسم مفاوضات الحنين — مكماهون . ولم تحاول إنجلترا الاستجابة الى المطالب العربية الا عندما تخرج موقفها الحربي في منطقة الشرق

1. Antonius G., The Arab Awakening P. 157 (١)

الأدنى وشعرت بحاجتها الملحة الى مساعدة العرب، فأرسل مندوبها السامي
عصر السير هنري مكماهون الى الحسين مذكورة بتاريخ ٢٦ أكتوبر سنة ١٩١٥
بالموافقة على المطالب العربية مع بعض التحفظات جاء بها : (١)

• أن ولايتي مرسين واسكندرونة واجزاء من بلاد الشام الواقعة في
الجهة الغربية لولايات دمشق اشام وحصص وحماه وحلب لا يمكن أن يقال
أنها عربية محضة وعليه يجب أن تستثنى من الحدود المطلوبة .

ومع هذا التعديل وبدون تعرض للمعاهدات المعقودة بيننا وبين رؤساء
العرب نحن نقبل تلك الحدود .

وأما من خصوص الأقاليم التي تضمنها تلك الحدود حيث بريطانيا
العظمى مطلقاً التصرف بدون أن تمس مصالح جارتها فرنسا فإن مفروض من قبل
حكومة بريطانيا العظمى أن أقدم الوثائق الآتية وأجيب على كتابكم بما يأتي :

أنه مع مراعاة التعديلات المذكورة أعلاه فبريطانيا العظمى مستعدة
أن تعترف باستقلال العرب وتؤيد ذلك الاستقلال في جميع الأقاليم الداخلة
في الحدود التي يطلبها دولة شريف مكة .

وقد اعترض (٢) الشريف حسين على اخراج ولايتي حلب وبيروت
وسواحلها من حدود الدولة المقترحة باعتبار كونها ولايتين عربيتين .
ولكنه لم يعارض استبعاد ولايتي مارسين واضنة .

وحاول السير هنري مكماهون (٣) في رده على الحسين أن يتجنب
الذخول في مناقشات حول ولايتي حلب وبيروت ، وارجاء البت في مصيرها
لحين الوصول مع فرنسا الى اتفاق بشأنها . وفي ختام المذكرة أضاف

(١) الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين الوثيقة رقم ٤ ص ١٣

(٢) الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين الوثيقة رقم ٥ ص ١٧

(٣) المصدر السابق وثيقة رقم ٦ ص ١٩

قائلا « وفي هذه الأحوال فإن حكومة بريطانيا العظمى قد فوضت لي أن أبلغ دولتكم أن تكونوا على ثقة من أن بريطانيا العظمى لا تنوى على إبرام أى صلح كان الا اذا كان من ضمن شروطه الأساسية حرية الشعوب العربية وخلاصها من ملطمة الألمان والأترك» .

وإذا ما نظرنا الى تلك المراسلات التي تبودلت بين الطرفين العربي والإنجليزي نجد أن تعمد إنجلترا عدم قبول اعتراض الحسين على التحفظات التي أقرتها بشأن ولايتي دمشق وبيروت وسواحلهما وكذلك ولاية العراق واصرارها على تحقيق مصالحها ومصالح حليفها فرنسا في هذه المنطقة العربية، واضح وظاهر .

ولكن مهما يكن من شيء ، فإن منطقة فلسطين التي كان يطلق عليها في ذلك الوقت سنجق القدس لم تثر بشأنها أية تحفظات ، أي أنها كانت تدخل في نطاق الدولة العربية التي وافقت إنجلترا على الاعتراف بها .

وإذا ما تركنا الجانب العربي وانتقلنا الى الجانب اليهودي ، نجد أن هؤلاء قد انتزوا فرصة قيام الحرب العالمية الأولى ، واتخذوا في مساومة الطرفين الحارين نظرا لأن الحرب في بدايتها لم تكن واضحة الاتجاه ، وكان من الصعب ترجيح كفة فريق على آخر . ولهذا فقد آثر ممثلو الصهيونية الدخول في مفاوضات مع المعسكرين الحارين في وقت واحد . وذلك لضمان الحصول على مطالبهم بشأن فلسطين أيضا كانت نتيجة الحرب . ولما كان كلا المعسكرين يحرص كل الحرص على كسب التأييد المادي والأدبي للصهيونية العالمية ، ازاء قضيته ، فقد لجأت ألمانيا وحليفتها النمسا الى الضغط على الدولة العثمانية (الخليفة الثالثة) لمنح الصهيونيين وعدا يسمح لهم بإنشاء شركة كبيرة تتمتع بامتيازات واسعة ، تكون مهمتها تيسير الهجرة اليهودية الى فلسطين .

ويذكر المؤرخ الكبير ارنولد توينبي في كتابه (دراسة ⁽¹⁾ في التاريخ) « أن كسب التأييد اليهودي -- بل وأكثر من ذلك نجح العداوة اليهودية -- كان أمرا على جانب عظيم من الأهمية للفريقين ، ومع أن تحرر اليهود

النفسي في مفاهيم في الغرب لم يكن قد تم بعد ، فأن تحررهم الاقتصادي والسياسي في ذلك الوقت كان قد قطع شوطا بعيدا في تقدير أصوات اليهود ومنحها وزنا هاما ، بل وربما ورنا حاسما في ميران القوى الدولية المضطربة . لقد أصبح اليهود الآن قوة بحسب حسابها في الحياة السياسية القومية لدى دول وسط أوروبا وغربها على السواء . وفي الولايات المتحدة كانت قوتهم لا تزال على مدى أوسع كثيرا ...

ويقول المستر هربرت صمويل (أول مندوب سام لاجلثرا في فلسطين في ظل الانتداب) : « ولو أن ألمانيا امتلكت فلسطين قبل اندلاع نيران هذه الحرب لاستطاعت أن تثنى على مصر هجوما مريعا » (١) .

وبينا كانت الدولة العثمانية على وشك اصدار هذا الوعد للصهيونيين بصفة رسمية ، بدأت جيوش اجلثرا تحت قيادة الجنرال النبي تبتاح أرض فلسطين وتستولى عليها . فقضت بذلك على أمل الألمان وحلفائهم في ضم الصهيونية العالمية الى جانبهم . كما أبقت الصهيونيين بالأافائدة ترجى من وراء اتفاقهم مع الاتراك بعد أن خرجت فلسطين من أيديهم . ولذا فقد عمروا وجروهم شطر اجلثرا وحلفائهم من الأمريكيين والفرنسيين ، عليهم يستطيعون أن يحققوا أحلامهم في انشاء وطن لهم بفلسطين .

عطف اجلثرا على الصهيونيين ودوافعه

حاول الصهيونيين أن يكسبوا عطف اجلثرا على قضيتهم ، وذلك من طريق الالتقاء مع اهداف السياسة الانجليزية في منطقة الشرق الأدنى . ولم يخف عليهم مدى أهمية مصر بالنسبة لاجلثرا كطريق امبراطوري هام الى ممتلكاتها في الهند وجنوب شرق آسيا ، وكقاعدة حربية هامة لعملياتها العسكرية في الشرق العربي . كما أن اجلثرا كانت تفكر في إيجاد حل لمسألة المصرية بعد انتهاء الحرب يتفق مع مصالحها . ولم يكن اعلان الحماية عليها

(١) Toynbee A., A study of history vol. VIII P. 302. (١)

الإحلام مؤقتة اقتضته الظروف الحربية وأملته حاجة إنجلترا إلى تأمين سلامة قواتها العسكرية في مصر ، فأنجلترا كان يهتما الاحتفاظ بمصر ، وبألا تؤدي نتيجة الحرب إلى خلق دولة قوية على حدودها من ناحية الشرق .

فهذا الفهم الصحيح لاتجاهات السياسة الإنجليزية سهل مهمة زعماء الحركة الصهيونية وشجعهم على القيام باتصالات سياسية مع الوزير الإنجليزي السير ادوارد جراي في أواخر عام ١٩١٤ . وفي تلك المقابلات أخذ الصيونيون يوضحون للوزير الإنجليزي مدى أهمية إقامة الدولة اليهودية الجديدة في فلسطين للمصالح الإنجليزية بالمنطقة ، فهي بالإضافة إلى ما تحققه من كسب صداقة اليهود في كل أجزاء العالم وتأييدهم لقضية الحلفاء في الحرب ، تحقق كسبا آخر على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لإنجلترا ، ألا وهو إقامة دولة موالية لإنجلترا تجاور الحدود المصرية وعلى مقربة من قناة السويس ؛ ويقول المتر هيربرت صحويل (أول مندوب سام لبريطانيا في فلسطين) في حديث له مع السير ادوارد جراي وزير خارجية إنجلترا في ٩ نوفمبر سنة ١٩١٤ : واعتقدت أن التفوذ الإنجليزي يجب أن يقوم بدور هام في تأسيس مثل هذه الدولة . لأن موقع فلسطين الجغرافي ، وقربها من مصر يجعل صداقتها لإنجلترا أمرا له أهمية للامبراطورية البريطانية (١) .

كذلك نجد أن اللورد كاتشر - أثناء وجوده بمصر - قام بمصاح عديدة لدى حكومته يلفت فيها نظرها إلى أهمية سوريا الجنوبية من خليج عكا وحيثما على البحر الأبيض المتوسط إلى خليج العقبة على البحر الأحمر لمصر كخط دفاع لحماية قناة السويس وكطريق بري إلى الشرق (٢) .

وستزداد إنجلترا اقتناعا بأهمية هذه المنطقة للدفاع عن مصر عندما تمكنت القوات التركية من مهاجمة حدودها الشرقية في سنة ١٩١٥ ، واجتيازها صحراء سيناء ، وتهديدها قناة السويس تهديدا خطيرا . إذ أيقنت

Samuel H.: Mémoire, P: (١)

Antonius G.: The Arab Awakening, P. 246 & 247. (٢)

المجتزأ في ذلك الوقت أن النظرية العسكرية القديمة التي كانت تعتبر الصحراء سداً طبيعياً منبعا أمام الغزاة قد تلاشت، وأنه يجب عليها أن تمد حدود مصر الشرقية بحيث تضم منطقة فلسطين، أو أن تخضع تلك المنطقة لسيادتها وسلاطتها، لتكون مآمن من مهاجمة قناة السويس.

كان طبيعياً أن يجد عرض الصهيونيين إقامة دولة حليفة لالمجتزأ على حدود مصر قبولا لدى السير إدوارد جراي وزير الخارجية وبعض المشيئين الإنجليز. فحرص المجتزأ على تأمين وجودها في مصر كان الدافع الأساسي والجوهري - في نظري - لإصدار وعد المنفور والعمل على تنفيذه.

وهناك سبب آخر دعا إنجلترا إلى الاستجابة إلى المطالب الصهيونية، ألا وهو حاجة إنجلترا إلى تأييد اليهود المادي والأدبي لكسب الحرب خصوصاً، للموقف الحرج الذي كان يحيق بدول الحلفاء المشتركة معها في ذلك الوقت. فالرومانيون كانوا قد سحقوا، ومعنوبات الجيش الروسي كانت قد أخذت في الانحلال، ولم يكن في وسع الجيش الفرنسي آنذ أن يقوم بهجوم واسع النطاق، وكان الإبطليون قد فشلوا فشلا مروعا في موقعة كاربوريتو، كما أن الغواصات الألمانية كانت قد أغرقت ما يبلغ مجموعاه ملايين الاطنان من السفن البريطانية، ولم يكن قد وصلت الفرق الأمريكية بعد إلى الخنادق. وفي تلك الحالة الحرجة ساد الاعتقاد بأن اكتساب عطف اليهود أو منوائهم قد يكون له أثره الفعال في توجيه كفة الميزان نحو قضية الحلفاء أو ضدهم. ثم أن عطف اليهود من شأنه على الأخص أن يضمن معاضدة اليهود في أمريكا ويجعل من الصعب على ألمانيا تخفيف قواها العسكرية وتحسين وضعها الاقتصادي في الميدان الشرقي (١).

(١) من تقرير اللجنة الملكية لفلسطين المصوب بتاريخ ١٢ يولية سنة ١٩٢٧ أو الصادر

بشكل كتاب أيضا رقم ٥٤٧٩ نغلا من مجلة الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين من ٨٨

كما ذكر المتمر لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية قوله « ان الرعاء الصهيونيين قطعوا لنا وعداً أكدوا مآله أنه اذا أخذ الحلفاء على عاتقهم تسهيل انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين فانهم سيعملون كل ما في وسعهم لابقاظ عاطفة اليهود في كافة أنحاء العالم وتأليبهم لمعاضلة قضية الحلفاء وقد يروا بوعدهم هذا » (١) .

لم يطالب الصهيونيون بجعل فلسطين كلها دولة يهودية مستقلة ، وذلك لأن نسبة العناصر اليهودية - في ذلك الوقت - كانت قليلة بشكل ملحوظ اذا ما قورنت بنسبة السكان العرب البالغة ٩٢٪ من عدد سكان فلسطين . ولكن كان هدفهم أن توضع فلسطين بشكل ما تحت حماية دولة أوربية ولتكن إنجلترا . فترة من الوقت - ربما يستعد الصهيونيون خلالها من حشد امكانياتهم الضخمة بمساعدة الدول الأوربية والولايات المتحدة الأمريكية لاخراج مشروعهم الى حيز التنفيذ .

معاهدة سايكس بيكو

وفي ذلك الوقت كانت تجري بين الدول الكبرى الثلاث إنجلترا وروسيا وفرنسا مفاوضات سرية بشأن تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية بينها بعد انتهاء الحرب ، وكانت تلك المفاوضات تمر بفترة تعثر واضطراب وذلك لرغبة كل من الدول الثلاث في أن تكون أرض فلسطين من نصيبها . وقد رأيت إنجلترا بتأقب رأسها الا تمسك بفلسطين حتى لا تثير عناد فرنسا وروسيا . وفي نفس الوقت ألا تسمح لاحدى هاتين الدولتين بأن تضع يدها على فلسطين ، ولهذا فقد وجدت أن أفضل الحلول للخروج من هذا المأزق هو الاتفاق مع حليفها على جعل فلسطين منطقة خاضعة للنظام دولي . وبذلك يتحقق لها ابعاد كل من فرنسا وروسيا عن أرض فلسطين ، وبالتالي عن قناة السويس . وقد تم لها ذلك في معاهدة سايكس بيكو سنة ١٩١٦ .

ويمكننا القول بأن مشروع اقامة الوطن القومي اليهودي قد أثر الى حد كبير في تقسيم المستطيل العربي الممتد من العراق شرقاً الى البحر الأبيض

(١) المصدر السابق : ص ٨٨

المتوسط غربيا ، فقلنا حاول المهتمون بهذا المشروع من المسؤولين الانجليز تحقيق أمرين جوهريين عند تحديد هذا الوطن القوي اليهودي :

الأول : أن يكون هذا الوطن صغير المساحة بحيث لا تسمح امكانياته بالدفاع عنه دون الاستعانة بمساعدة خارجية . وفي هذه الحالة سيشعر اليهود المقيمون فيه بحاجةهم الى محالفة انجلترا دفاعا عن كيانهم .

والثاني : ضمان سلامة الدولة اليهودية الجديدة وسهولة الدفاع عنها . وهذا يتطلب من بريطانيا أن تضع نصب عينها عند تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية بعد انتهاء الحرب أن تجاورها في فلسطين دولة أوروبية صديقة .

وتتضح تلك السياسة من الحديث الذي دار بين المستر هربرت صمويل والسير ادوارد جراهي وزير خارجية انجلترا . فيقول المستر هربرت صمويل وأن الدولة (اليهودية) يجب أن تكون محايدة من حيث أنها لا تستطيع أن تكون كبيرة بالقدر الذي يمكنها من الدفاع عن نفسها . وقلت أيضا أنه سيكون هناك نفع عظيم اذا ضمت بقية سوريا الى فرنسا ، إذ أنه أجدى للدولة اليهودية أن تكون لها جارة أوروبية من أن تكون تلك الدولة تركيا (١).

كان تدويل فلسطين اذن هو الخطوة الأولى في سياسة انجلترا ازاء فلسطين ستبعتها خطوات أخرى في سبيل تحقيق سيطرتها عليها . وقد ازداد في ذلك الوقت ضغط زعماء الصهيونيين على انجلترا من أمثال روتشك وويزمن للاسراع في الاتفاق على نصوص التصريح الرسمي الذي ستعلنه انجلترا بشأن فلسطين . وبعد مشاورات عديدة بين هؤلاء الزعماء من ناحية والحكومتين الانجليزية والامريكية من ناحية أخرى ، اتفقت الاطراف المعنية بالأمر على مشروع معين قدم الى وزارة الخارجية الانجليزية في ١٨ يولية سنة ١٩١٧ وينص على مايلي (٢) :

(١) التوثائق الرئيسية في قضية فلسطين ص ٩٢

(٢) Weizman Dr.; Trial & Error. P. 255.

"His Majesty's Government, after considering the aims of the Zionist Organization, accepts the principle of recognizing Palestine as the National Home of the Jewish people and the right of the Jewish people to build up its national life in Palestine under a protection to be established at the conclusion of Peace following upon the successful issue of the war.

His Majesty's Government regards as essential for the realization of this principle the grant of international autonomy to the Jewish nationality in Palestine, freedom of immigration for Jews, and the establishment of a Jewish National Colonization Corporation for the resettlement and economic development of the country.

The conditions and forms of the internal autonomy and a charter for the Jewish National Colonizing Corporation should, in view of His Majesty's Government, be elaborated in detail and determined with the representatives of the Zionist Organization."

« إن حكومة صاحب الجلالة ، بعد اطلاعها على أهداف المنظمة الصهيونية تقبل بمبدأ الاعتراف بفلسطين وطنا قوميا للشعب اليهودي . وبحق الشعب اليهودي في إقامة حياة قومية له في فلسطين في ظل حماية تنظم بمد احرار النصر وعقد لواء السلام . . .

« أن حكومة صاحب الجلالة ترى أن تحقيق هذا المبدأ يجعل من الضروري منح استقلال ذاتي داخلي للقومية اليهودية في فلسطين . وحرية الهجرة لليهود وانشاء شركة يهودية قومية لاستعمار الاراضي تقوم باسكان المهاجرين وتنمية اقتصاديات البلاد .

« ترى حكومة صاحب الجلالة أن شروط الاستقلال الداخلي واشكاله ، وبراعة الشركة اليهودية القومية لاستعمار الاراضي يجب أن نبدأ بالتفصيل ويبت فيها بالاتفاق مع ممثل المنظمة الصهيونية .

جاء هذا المشروع نتيجة سعي متصل من قبل اليهود الصهيونيين ، ولكن الحكومة الانجليزية كانت حريصة على أن يحوز هذا المشروع موافقة عامة من قبل جميع الطوائف اليهودية صهيونية كانت أو غير صهيونية ، ومن ثم

فقد عرضت الحكومة هذا المشروع على اليهود غير الصهيونيين لمعرفة رأيهم فيه . ولكنهم رفضوه وحلوا عليه ، لأنهم لم يكونوا على اتفاق فيما بينهم وبين اليهود الصهيونيين على وجود قومية يهودية تربط جميع اليهود في مختلف دول العالم رغم اختلاف جنسياتهم ، فهم لا يعترفون باليهودية كجنس ، ولكنهم يؤمنون بها كدين ، هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فقد خشي هؤلاء اليهود أن يتعرض وضعهم الخلقى في الدول التي يعيشون فيها لبعض التغيرات نتيجة انشاء هذا الوطن القومي اليهودي . وانجاد جنسية يهودية ، قد يشجع بعض الدول الراغبة في التخليص من اليهود على طردهم والزج بهم في هذا الوطن الجديد .

وأمام رفض اليهود غير الصهيونيين لنص هذا المشروع رأيت الحكومة الإنجليزية ادخال بعض التعديلات عليه ليتلاءم مع رغبات الطوائف اليهودية المعارضة وذلك في ١٨ سبتمبر سنة ١٩١٧ وهذا نصه : (١)

1. "His Majesty's Government accepts the principle that Palestine should be reconstituted as the national Home of the Jewish people.
2. His Majesty's Government will use its best endeavours to secure the achievement of this object and will discuss the necessary methods and means with the Zionist Organization."

١ - « تقبل حكومة صاحب الجلالة مبدأ إعادة تحويل فلسطين الى وطن قومي للشعب اليهودي » .

٢ - أن حكومة صاحب الجلالة ستقبل أطيب مساعيها لتحقيق هذه الغاية وستتفاوض مع المنظمة الصهيونية في تحديد الطرق والوسائل الضرورية لبلوغها » .

وقد حاز هذا التعديل الجديد موافقة حكومة الولايات المتحدة الأمريكية وعلى رأسها الرئيس ولسون ، ولكنه في نفس الوقت لم يحز قبولا لدى اليهود غير الصهيونيين وأثاروا اعتراضين جوهريين حول هذا التعديل :

(١) نجيب سدة : قضية فلسطين ص ٢٨

الأول : هو عدم موافقتهم على جعل فلسطين بأكلها وطنا قوميا لليهود ورأوا الاكتفاء بإنشاء موطن لليهود في فلسطين.

الثاني : أنهم خشوا على مراكزهم في الدول الأوربية التي يقيمون فيها فأرادوا إيجاد نص صريح يضمن للطوائف اليهودية بمختلف الدول حقوقهم وحررياتهم التي يتمتعون بها .

ولذا رأت الحكومة الإنجليزية أن تعالج الأمر بشيء من التؤدة وأن نجد نصا لهذا المشروع يتفق مع رغبات كلا الفريقين اليهوديين . وبعد مشاورات بينها وبين حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ، توصلت الحكومتان الى نص نهائي للتصريح واتفق عليه الرئيس ولسون في ١٧ أكتوبر سنة ١٩١٧ قبل اعلانه . وفي ٢ نوفمبر من نفس السنة بعثت الحكومة الإنجليزية على أثر (١) احتلال قواتها لميناء غزة بالنص الرسمي لهذا التصريح الى اللورد روتشلد وهذا نصه :

"His Majesty's Government view with favour the establishment in Palestine of a National Home for the Jewish people; and will use their best endeavours to facilitate the achievement of this object, it being clearly understood that nothing shall be done which may prejudice the civil and religious rights of existing non-Jewish communities in Palestine, or the rights and political status enjoyed by Jews in any other country."

« أن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية على عل أن يفهم جليا أنه لن يوافق بعمل من شأنه أن يغير الحقوق المدنية والدينية

(١) Nirman Bentwich; PalestineP. 78.

(١) الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين - المجموعة الأولى ١٩١٥ - ١٩٤٦ نشر جامعة الدول العربية .

التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين ، ولا الحرق
أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى : (١) .

وقد اشتهر هذا التصريح باسم وعد بلفور Balfour Declaration نسبة
الى وزير خارجية إنجلترا المستر بلفور .

نقد وعد بلفور

إذا ما نظرنا الى هذا الوعد وان الظروف الدولية التي أحاطت بإصداره
نجد أنه أولاً يعد نقضاً صريحاً للاتفاق العربي الإنجليزي الذي عرف باسم
اتفاقية (الحسين - مكماهون) في سنة ١٩١٥ . فهذا الاتفاق قد نص صراحة
على أن فلسطين جزء من الدولة العربية الميمنة بالاتفاق ، وأن إنجلترا إذا كانت
قد أثارت بعض التحفظات بشأن دخول ولائي البصرة وبغداد في نطاق
الدولة العربية المقترحة لوجود مصالح حيوية بتلك الجهات . وكذلك أثارت
نفس الاعتراضات بخصوص ولايات دمشق وحمص وحمه وحلب لوجود
مصالح لخليفها فرنسا فيها . فانه لم تثر أي تحفظات بشأن فلسطين (٢) . ولو أن
المستر تشرشل في بيانه الذي أعلنه في عام ١٩٢٢ قد حاول ادخال منطقة
فلسطين أيضاً ضمن المناطق المستثاء فيقول : « وهذا التحفظ يستثنى في حمله
ما يستثنيه من المناطق » ذلك القسم من سورية الواقع غربي ولاية الشام .
وقد اعتبرت حكومة جلالة على الدوام بأن هذا التحفظ يشمل ولاية بيروت
وسنجق القدس المستقل . وبناء عليه تكون فلسطين برمتها غربي الأردن ،
مستثاء من تعهد السير هنري مكماهون . « فأصرار إنجلترا على التمسك
بهذا الوعد يعد نقضاً صريحاً لالتزام دولي سبق أن قطعتة إنجلترا على نفسها المذهب .

Certified True Copy (١)

British Embassy, Cairo.

Assistant Oriental Secetry 19-6-37.

Arabic Version of letter forme Sir Arthur Mc Mahon to King Hussain dated 26-10-15
(Dispatch No. 172 of 14-12-15).

ملا عن مجموعة الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين وثيقة رقم ٤ ص ١٤

(٢) نجيب صدقة : قضية فلسطين ص ٤٢

وكان على إنجلترا أن تختار بين أحد الألتزامين ، إما الوفاء بتعهداتها للعرب
وتجاهل وعددها لليهود ، وإما أن تختار العكس ، لأنها لن تستطيع أن توفق بين
التقيضين . وهذا سيتوقف بطبيعة الحال على مدى صلابة كل من الطرفين
العربي واليهودي ، ومقدار تمككه بما حصل عليه من حقوق وامتيازات .

وإذا نظرنا الى الموقف الدولي عقب انتهاء الحرب وفي أثناء عقد مؤتمر
الصلح في فرساي نجد أن الجانب اليهودي قد عبأ كل قواه وحشد كل إمكانياته
للتأثير على الدول الكبرى وحضها على حل مشكلة فلسطين بما يتفق ومصالحه
في ضوء وعد بلفور . وكانت تعاونهم في ذلك الوقت خيرتهم بالنتيحات السياسية
واتصالهم برؤساء ووزراء الدول الأوروبية الكبرى ، بينما نجد أن الوفد العربي
الذي ذهب لمؤتمر الصلح في فرساي برئاسة الأمير فيصل للدفاع عن مصالح
العرب لم تكن له دراية بالموقف الدولي أو بالنتيحات السياسية . كما قوبل
بمعارضة شديدة من قبل فرنسا على وجه الخصوص . فكان موقفه لذلك ضعيفا ،
واعتمد كل الاعتماد على تأييد إنجلترا وعلى مشورتها ، فلم يكن من السهل عليه
رغم عدالة قضيته - أن يصل الى نتائج إيجابية ، وقبل في نهاية الأمر ما عرضته
عليه إنجلترا . فضعف مركز الوفد العربي إذا ما قورن بمركز الوفد الصهيوني
في مؤتمر الصلح كان له أكبر الأثر ، في أن تنحاز إنجلترا الى جانب اليهود
على حساب مصلحة العرب .

(ثانيا) إن إنجلترا قد تسرعت في منح هذا الوعد لليهود قبل أن تحتل
فلسطين وقبل أن تفرضها عصبة الأمم في حكم تلك البلاد . فموقفها هذا
لا يجبر لها ان تغير من الوضع الراهن بفلسطين .

(ثالثاً) كان من الممكن أن يؤدي نظام الانتداب فائدة محققة اذا
ما طبق دون ميل أو تحيز ، فاذا نظرنا الى المادة الثانية والعشرين من الميثاق
الخاص بهذا النظام نجد ان نص على أنه في حالة الشعوب الراقية التي كانت
تحت حكم الأتراك والتي وصل رقيها درجة تدعو الى الاعتراف مؤقتا
بمستقلالها تقتصر مسئولية الدولة المنتدبة على تقديم المشورة والمساعدة ،
حتى تستطيع تلك الشعوب المروض بنفسها والوقوف على قلمها . كذلك

نصت الفقرة الثالثة من نفس المادة على الاعتراف « بحق الجماعات التي كانت تابعة للإمبراطورية العثمانية بكيانها كأمم مستقلة تحتاج أن تمد بالمعونة والمشورة الإدارية من قبل دولة متمدنة ويكون لرغائب هذه الجماعات الاعتبار الأول في اختيار الدولة المنتدبة » (١) .

ولكن عصبة الأمم قد استثنت فلسطين من ذلك ، فنصت المادة الثانية من صك الانتداب على أن « تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن وضع البلاد في أحوال سياسية وإدارية واقتصادية تضمن انشاء الوطن القومي اليهودي » (٢) أى أن إنجلترا لم تصبح وحدها مسؤولة عن تنفيذ الوعد ، بل لقد أسهمت العصبة أيضاً في هذه المسؤولية .

(رابعاً) : إن إصدار هذا الوعد ثم العمل على تنفيذه يتناقى مع ما نادى به إنجلترا وحليفاتها خلال الحرب العالمية الأولى من حق تقرير المصير . وعندما حاولت الولايات المتحدة تطبيق مبدأ حق تقرير المصير في فلسطين وافقت كل من فرنسا وإنجلترا على ذلك بحاملة لأمريكيا ، ولكنهما رفضتا تعيين أعضائهما في اللجنة التي سيوكل إليها هذا الأمر ، بحيث وجدت الولايات المتحدة نفسها مضطرة أن يناد مندوبيها وحدهم للقيام بعملية الاستفتاء واطلق عليهم اسم لجنة كنج . كرين . وقد أسفرت نتائج الاستفتاء عن معارضة السكان جعل فلسطين وطن قومي لليهود (٣) ولكن هذه النتيجة لم تملن ، وظلت في طلي الكتمان حتى تتمكن إنجلترا وشريكاتها من تحقير المطامع الصهيونية في هذا البلد العربي على حساب السكان الذين يمثلون أغلبية تقدر بنحو ٩٢ ٪ من عدد السكان والذين لم يحسب لأربهم أى حساب .

(خامساً) أن اتفاقية سايبكس بيكو قد نصت على إخضاع الأراضي المقلمة لنوع من الإدارة الدولية يشترك في وضعها كل من إنجلترا وفرنسا

(١) مجموعة الوثائق الرقسية في قضية فلسطين ص ١٢٨ وما بعدها

(٢) المصدر السابق : ص ٣٠

(٣) Bentwich N., Palestine P. 91.

وروسيا وحلفائهم بالإضافة الى الحسين (١) بن علي . فانفراد إنجلترا بالحكم دون مشاركة الأطراف المنصوص عليها في الاتفاق اعتداء آخر على المواثيق الدولية .

وفي حقيقة الأمر فقد بدأت المنظمات الصهيونية في مختلف الحكومات الأوربية والأمريكية تتكاتف لتحقق مطلبهم في إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين تحت حاية إنجلترا . وقد عارضت بعض الحكومات في أوروبا الأذعان لمطالب الصهيونية العالمية، فروسيا رفضت الموافقة على ذلك « مستندة الى أن تحويل فلسطين الى دولة عنصرية يهودية سوف يندس الأراضي المقدسة » (٢) ولم تنته تلك المعارضة الا بقيام الثورة البلشفية في روسيا وسقوط حكم آل رومانوف في ١٢ مارس سنة ١٩١٧ .

ويذكر المؤرخ الكبير توينبي في كتابه صالغ الذكر بأن زوال القيصرية قد أفقد العرب الفلسطينيين حاية روسيا (٣) .

كذلك عارضت كل من فرنسا واطاليا في انفراد إنجلترا بالانتداب على فلسطين . فرنسا كانت تعلم بنوايا إنجلترا وتخشى أن يؤدي انفرادها ببسط سيادتها ونفوذها على فلسطين الى الاخلال بتوازن القوى بينها وبين إنجلترا في منطقة الشرق الأدنى وشرق البحر الأبيض المتوسط . كما عارضت الحكومة الايطالية في تطبيق أي نظام آخر غير النظام الدول متأثرة بمعارضة البابوية هذا الانتداب خشية أن يؤدي الى الماس بسلامة الأراضي المقدسة بفلسطين .

وقد نجح زعماء الصهيونية في اقناع الدولتين بالعدول عن موقفهما لتصميمهم على التمسك بإنجلترا . وفي هذا يقول الدكتور حاييم وايزمن « لقد قررنا أن لا يكون هناك اشتراك دولي أو تدويل في فلسطين لما يعقب

(١) Antonius G.; The Arab Awakening. P. 260.

(٢) Toynebo A.; A Study of history. Vol VIII. P. 302.

(٣) انصهر لسبق ص ٣٠٢

ذلك من تعقيدات ومتناقضات وعدم كفاية .. وربما أحدث ذلك توقفا تاما في عملنا ، وأن ما يطلبه الصهيونيون هو حماية بريطانية مع حقوق كاملة» (١).

وفي موضع آخر يستطرد قائلا : «ولا حاجة الى بحث الحقيقة الواقعة وهي أن الديمقراطية الوطنية اليهودية والمنظمة الصهيونية التي تمثل في جوهرها هذه الديمقراطية تقع دون ريب في الحكم البريطاني وتقرى في الحماية البريطانية الامكانية الوحيدة للتقدم المطرد نحو جعل فلسطين اليهودية بحكومة ديمقراطية» (٢).

ونتيجة لتلك المداعي المنتظمة من قبل المنظمات الصهيونية العالمية لدى الدول الأعضاء في عصبة الأمم ، أن نجح هؤلاء الصهيونيون في حمل عصبة الأمم على منح إنجلترا صك الانتداب على فلسطين في ٢٤ يولية سنة ١٩٢٢ . وبهذا تمكن كل من الطرفين الانجليزي والصهيوني الوصول الى تحقيق هدفه في ظل نظام الانتداب .

تحليل الوعد

اذا ما تناولنا هذا التصريح المتنضب بالبحث والتحليل ، نجد أنه يشتمل على عبارات مطاطة وضعت بعد دراسة مستصيفة اشترك فيها أساطين السياسة في كل من إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية ، مما يدل دلالة واضحة على أساليب السياسة الانجليزية المتتوية ، وعلى براعة ومقدرة وزارة الخارجية الانجليزية في اختيار الألفاظ المرنة التي تحمل أكثر من معنى والتي يمكن تفسيرها على وجوه متعددة .

فاذا ما أمعنا النظر الى عبارة وطن قومي National Home وأردنا أن نحدد مدلولها لتعلم علينا ذلك ، فهل يقصد بها وطن سياسي بالمعنى المعروف في العصر الحديث ، أم تعني شيئا آخر غير ذلك ، واذا كانت تقصد معنى آخر فما هو الدافع وراء اختيار هذه العبارة دون غيرها ... ؟

(١) Weizman Dr.; Trial & Error. P. 230.

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٣ وما بعدها .

لا يمكننا في حقيقة الأمر أن نفسر هذه العبارة التي لم تعرف في قاموس السياسة الدولية قبل الحرب العالمية الأولى إلا إذا استعرجنا أقوال (١) الساسة المسئولين في الحكومة الإنجليزية الذين اشتركوا في صياغة هذا التصريح . فاللورد بلفور الذي اقترح اسمه بهذا الوعد قد فسره في سنة ١٩١٧ بأن الوطن القومي معناه « شكلا ما من حماية إنجليزية أو أمريكية يعطى في ظلها لليهود كل ما من شأنه أن يسهل لهم تأسيس مركز صحيح للثقافة القومية وموطن للحياة القومية » .

ولكن زميله لويد جورج واللورد كرزون كانا أكثر صراحة في تفسيرهما لمعنى الوطن القومي . فقال الأول « إن الفكرة التي أستوحيناها والتفسير الذي اتفقنا عليه هو أن لا تقضى معاهدات الصلح بخلق دولة يهودية في الحال في فلسطين دون أن يؤخذ رأي أغلبية سكان هذه البلاد . غير أننا رأينا أن نسمح المجال لجعل فلسطين دولة يهودية في المستقبل ، إذا عرف اليهود كيف يستفيدون من التسهيلات التي أعطيناها أيامهم ، وحازوا على أغلبية عددية في فلسطين عندما يحين الوقت لنح فلسطين أنظمة سياسية تمثيلية » .

وفي هذا المعنى يقول هربرت صمويل « قد توجد الدولة (اليهودية) في المستقبل ومع مجريات الأحداث ، ولكن طالما كانت الأغلبية العظمى من السكان من العرب فانشاء الدولة خارج عن الموضوع . وأن في فرض حكومة من الأقلية اليهودية نقضنا صريحا لأحد الأهداف الرئيسية التي أعلن الحلفاء أنهم يحاربون من أجلها » (٢) .

وفي حقيقة الأمر فإن عبارة (وطن قومي) قد قصد بها منذ أول الأمر (دولة سياسية) ولكن إنجلترا اختارت العبارة الأولى للتعمية ولتهدئة شكوك العرب (٣) .

(١) نجيب صدقة : قضية فلسطين ص ٢٣ و ٢٤

(٢) Samuel H.; Memoir P. 89.

(٣) Atujah E.; The Arabs P. 102

وقال اللورد كرزون في تفسيره لهذه العبارة أن الوطن القومي معناه
وكيان سياسي يولفه اليهود ، ويدبر شئون اليهود ويحكم وفقاً لمصالح اليهود .»

من التفسيرات السابقة لولاء العاسة يمكننا القول بأن الوطن القومي معناه
مرحلة انتقال يعيش اليهود في ظلها تحت الانتداب الانجليزى ريثما تصبح لهم
الأغلبية العددية وفي ذلك الوقت يمكن المدااة بالدولة اليهودية
الحديثة ككيان سياسي امتداداً على الكثرة العددية لليهود . أما عند اصدار
الوعد فلم يكن عدد اليهود في فلسطين يزيد عن 7.8٪ من عدد السكان ، فكيف
تجرؤ انجلترا وحليفاتها على المدااة بفلسطين دولة سياسية يهودية في ذلك
الوقت . فعبارة وطن قومي تحمل في أذهان ساسة انجلترا وزعماء الصهيونيين
معنى واحد هو الوطن السياسي . فالوطن القومي في هذه الحالة ليس هدفاً
في حد ذاته وإنما وسيلة لغاية أخرى مستحققة بعد حين .

أما عن تعبير الشعب اليهودى Jewish people فهو تعبير غامض لجأت
اليه الحكومة الانجليزية لتتخلص من الخلاف الذى وقع بين اليهود
الصهيونيين وغير الصهيونيين بشأن كلمة أمة Nation ، فالصهيونيون كانوا
ينادون بأن يهود العالم على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم يكونون أمة واحدة
بل عسراً واحداً race، بينما كان اليهود غير الصهيونيين لا يعترفون بوجود
روابط قومية بين المجتمعات اليهودية المنتشرة في جميع أنحاء
العالم ، بل ينظرون اليها على انها روابط دينية بحتة . ولما لم يصل الطرفان
الى اتفاق فيما بينهما اتخذت الحكومة الانجليزية ، موقفاً وسطاً بين الفريقين ،
فاستخدمت كلمة غامضة يصعب تعريفها تعريفاً قانونياً الا وهى كلمة شعب .

وإذا انتقلنا الى كلمة تسهيل facilitate التى وردت بالنص نجد أن
المسؤولين الانجليز لم يحاولوا التورط في هذا الوعد ، وأن يذكروا مثلاً كلمة
تأسيس بدلاً من كلمة تسهيل . بل أرادوا أن يلقوا بمسئولية اقامة
الوطن القومي على عاتق اليهود أنفسهم دون أن يعهدوا بأقامته ، حتى اذا ماتعذر
عليهم تحقيق هذا الهدف في يوم من الأيام أصبحت الحكومة الانجليزية

في حل من أمرها وليس لليهود عليها سلطان . أى أن إنجلترا لا تضمن نجاح تحويل الوطن القوي الى دولة بالمعنى السياسي المفهوم . فهذه المهمة متركبة لنشاط اليهود وللظروف الخارجية ، فاذا استطاع اليهود أن يصبحوا أكثرية في فلسطين ، أصبح لهم الحق في المناذاة بدولتهم طبةً للمبادئ الديمقراطية ، وان لم يستطيعون ذلك بقى الوطن القوي وطناً قومياً فحسب .

كما أن الحكومة الإنجليزية لن تعارض في أن يصبح اليهود أكثرية في فلسطين ولكننا لا نعهد بمجملهم أكثرية . فهى توافق على انشاء وطن قومي لليهود بفلسطين وتساعد على انشائه ولكننا لا نعهد بمجمل فلسطين بأكلها وطناً قومياً لهم .

ورغم هذه التسهيلات التي تعهدت إنجلترا بتقديمها لليهود فان الوعد كان يتضمن تعهدات تتعلق بحقوق السكان العرب . ومع انها تحفظت مهمة وغامضة ، الا أنها كانت على جانب كبير من الاهمية بالنسبة لسكان العرب اذا ما استطاعت الدول العربية التمسك بها ، ومطالبة إنجلترا بمراعاتها ، بصفتها الدولة المتدبة على فلسطين من قبل عصبة الأمم . ولكننا نجد أن ظروف الدول العربية في ذلك الوقت لم تكن تسمح لها بمنح مشكلة فلسطين ما تستحقه من عناية واهتمام ، نظراً لوقوع معظمها في براثن الاستعمار الأوربي . فصر قد فرضت عليها الحماية في سنة ١٩١٤ وظلت على هذا الوضع حتى تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ . وحتى هذا الاستقلال الذي منحه البلاد في ظل هذا التصريح كان استقلالاً صورياً بينما احتفظت إنجلترا لنفسها بإدارة شؤون مصر والسودان طبقاً لأهوائها ، ووفق مصلحتها .

أما سوريا وليبان فقد خضعا للاحتلال الفرنسي العاشم واخذوا يقاومانه بكل ما أوتيا من قوة وجهد ، وكذلك الشأن بالنسبة للعراق الذي خضع للاحتلال الإنجليزي .

أما عن شمال أفريقيا فقد خضعت ليبيا لاحتلال إيطاليا ، كما خضعت الجزائر وتونس للاحتلال الفرنسي من قبل . فعظم الدول العربية كانت مشغولة بمقاومة الاستعمار داخل أراضيها ، وبحل مشكلاتها الداخلية ولم نجد لديها متسعاً من الوقت للاهتمام بقضية فلسطين . حتى إذا ما بدأت هذه الدول تتخلص جزئياً من مشاكلها الداخلية وتبدى اهتماماً بقضية فلسطين ، وذلك في الثلاثينات من هذا القرن ، نجد أن اقدام اليهود كانت قد توطدت في فلسطين وتدعت مصالحهم الاقتصادية بها بشكل أصبح يمثل خطراً حقيقياً على المصالح العربية بفلسطين ، فلم تستطع أن تغير من الوضع شيئاً يستحق الذكر .

وإذا ما تأملنا عبارة الطوائف غير اليهودية Non Jewish communities التي وردت بنص الوعد نجد أنها تشتمل على مغالطة كبيرة للحقائق المنموسة ، فالعبارة توهم القارىء بأن فلسطين بلد يهودى ، وأن الطوائف غير اليهودية أقلية فيه ، وهذا عكس الواقع اذ كانت نسبة السكان العرب كما سبق أن ذكرنا حوالى ٩٢٪ من عدد السكان الكلى .

أما العبارة الواردة بالنص عن ضمان الحقوق العرب المدنية والدينية The civil and religious rights فمبهمة لا تدل دلالة واضحة على مضمونها الدقيق . وقد تمعدت الحكومة الانجليزية وضع هذه العبارة الغامضة ارضاء للعناصر الصهيونية من ناحية ، ولعدم اثاره الشعوب العربية من ناحية أخرى . وفتحت الباب أمامها فى المستقبل لتفسير تلك العبارة بما يتفق مع مصالحها .

وإذا حاولنا تفسيرها فى حلودها الضيقة نرى أنها تنصب على الحريات العامة والتصرفات الشخصية فحسب ، بينما لا تتسع لتشمل الحقوق السياسية كذلك . وكان يمكن لانجلترا أن تجعل هذه العبارة أكثر وضوحاً لو أرادت ذلك ، ولو كانت نواياها فوق مستوى الشبهات . فكان فى مقدورها أن تضع عبارة الحقوق السياسية بدلا من الحقوق المدنية والدينية ، ولكنها كانت

تعلم أن هذه العبارة أكثر دقة وتحديد للمعنى من سابقها ، وأن وضعها على هذا النحو سيحول بين الصهيونيين وتحقيق مطالبهم مستقبلا في جعل فلسطين دولة يهودية سياسية ، لأن هذا سيتعارض بطبيعة الحال مع ضمان إنجلترا لحقوق العرب السياسية .

وإذا كانت إنجلترا قد اغفلت تلك العبارة عن عمد فيها يتعلق بحقوق العرب ، فإنها لم تتناساها بالنسبة لحقوق اليهود المقيمين في الدول الأخرى خارج حدود فلسطين ، بل حددتها تحديداً دقيقاً لا لبث فيه ولا إبهام . فقد نصت في العبارة الخاصة باليهود بضمأن حقوقهم والوضع السياسي *the rights and political status* الذي يتمتعون به .

وقد صور لنا المؤرخ الكبير توينبي سياسة إنجلترا أزاء فلسطين أصدق تصوير حيناً قال « إن الدولة الغربية التي تتحمل نصيب الأمد في المسؤولية عن الخيبة في فترة ما بين الحربين لانتهاذ الموقف في فلسطين هي بريطانيا التي كانت أولا الدولة المختلة، وبعد ذلك الدولة المتدبة، وقد أدارت شئون الانتداب من سنة ١٩١٨ - ١٩٤٨ .

«وفي خلال هذه السنين الحرجة كان موقف الحكومة البريطانية الشامل لجميع الاحزاب والذي طبقته جميع الحكومات المتتابعة ، هو التعامى المقصود الجدير بالادانة. (١)»

ويمكننا القول بأنه رغم ما بذله الصهيونيون من مساع للحصول على هذا الوعد ، فإنهم لم يكونوا بمستطيعين الوصول اليه لولا مصلحة إنجلترا في حماية مركزها بمصر ، وتأمين اتصالها البري مع الشرق . فهذا الدافع الرئيسي وحده كان كافياً لحمل إنجلترا على اصدار هذا الوعد الذي سيمكنها من فلسطين مهما كان الدور الذي أدته العوامل الأخرى من سياسية واقتصادية ودينية .

Toynbee A.: A study of history. VIII P. 304. (١)

مراجع البحث

المراجع العربية :

- جامعة النوازل العربية : الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين . المجموعة الأولى ١٩١٥-١٩٤٦
- جامعة النوازل العربية : مقال خطير بقلم البروفيسور آرندله توينين .
- دكتور أحمد عبد القادر الجمال : من مشكلات الشرق الأوسط ، القاهرة ١٩٥٤
- دكتور مصطفى صفوت : إنجلترا وقتنا الضيق ، اسكندرية - ١٩٥٦

المراجع الأوربية :

- Atiyah E.; The Arabs. 1955.
- Antonino G., The Arab Awakening. London 1938.
- Bentwich N.; Palestine. London 1934.
- Hoskins H.L.; The Middle East. New York 1934.
- Samuel H.; Memoirs.
- Weitzman Dr.; Trial & Error.

تم ، بحمد الله ، طبع هذه المجلة
بمطبعة بزنمة الاسكندرية ، في يوم الأحد
٢١ من ربيع الأول سنة ١٣٨٣ الهجرى
١١ من أغسطس سنة ١٩٦٣

شعبان السيد محمد السلام
مدير المطبعة الادارى

1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
21
22
23
24
25
26
27
28
29
30
31
32
33
34
35
36
37
38
39
40
41
42
43
44
45
46
47
48
49
50
51
52
53
54
55
56
57
58
59
60
61
62
63
64
65
66
67
68
69
70
71
72
73
74
75
76
77
78
79
80
81
82
83
84
85
86
87
88
89
90
91
92
93
94
95
96
97
98
99
100



